

فضيل

قصة قصيرة

الكاتب: محمد سليمان

تدور أحداث هذه القصة في زمن لم يعرف

أهله وسائل الاتصال والتكنولوجيا التي نعرفها،

ولكن القيم عندهم، التي بها يمكن تشخيص

مشكلتهم وحلها، هي التي نحتاجها.

تترنح سفينة الرخاء الشراعية الكبيرة في بحر مضطرب وقد رُفعت أشرعتها، تتقاذفها الأمواج من أمامها ومن خلفها منذرةً بعاصفة عاتية، لم يبق للسفينة من اسمها نصيب سوى نقش على ألواحها لا يلبث أن يظهر طافياً حتى تعمده مياه البحر الغاضبة، وما إن ينغمس حتى يدفعه البحر عنوة فوق الماء، يغشى السفينة قلق وهلع ألم بركابها الأربعين، فلا يُسمع فيها إلا هدير الريح وزججة البحر وصياح الركاب المجتمعين مع القبطان في قاعة الطعام وهم في هرج يتلاومون.

يقف القبطان رامز خلف طاولة مستطيلة وعلى جانبيه أربعة ملاحين وأمامه عشرون مسافراً من التجار يتقدمهم سعدون ورفاقه رافع وجابر وحمدان، ومع هؤلاء يقف الطبيب فضيل وستة آخرون من المسافرين الذين همهم السلامة لكنهم وجدوا أنفسهم كالحبوب بين قطبي رحى التجار، ما عسى السبعة أن يصنعوا وهم يرون الأمواج تصب حمم الموت عليهم

أو تراه الموت استجلب الموج إليهم؟ أقنع الطبيب فضيل المسافرين الستة بالتروي حتى يتمكن من محاورة التجار، وبعد لأي استطاع كبح جماح صابر وأخيه جميل اللذين أوشكا أن يصبطدا بسعدون التاجر.

- " أنت المسؤول أيها القبطان" قال سعدون بغضب، وأردف بنبرة سخط متصاعد: " ألم تكن تعلم أن السفينة غير صالحة لتمخر أعالي البحار فتهدد أرواحنا وبضاعتنا؟ "

- " لقد أوضحت لكم حقيقة الموقف" قال القبطان رامز بحزم "فاجأتنا العاصفة وفرص عبورها بسلام ضئيلة بسبب الحمولة الزائدة من البضائع، وسنكون في حال أفضل إذا تخلصنا من الحمل الزائد، على السفينة أربعون شخصاً، اثنان وعشرون منهم أصحاب بضائع؛ أنا أحدهم، فأرجو التعاون قبل الغروب، وإلا سأضطر والملاحين إلى إلقاء ما نستطيع إلقاءه من الأشياء في البحر"

"من أصحاب الحمولة الزائدة؟" "من أجاز تحميل بضاعة فوق طاقة السفينة؟" "أرواحنا أغلى من البضاعة!" أسئلة وهتافات ارتفعت بها حناجر بعض الركاب، وماج الناس داخل السفينة كالموج الذي يعصف بها من خارجها حتى هتف بهم صوت أجش "يا قوم، اسمعوا" التفت الجميع إلى فضيل بقامته المعتدلة، وهو رابط الجأش، يظهر عليه الاهتمام دون جزع والحرص على النجاة بغير هلع، عدل قبعته على رأسه ومضى يقول:

- "لا جدوى أيها السادة من تبادل اللوم وتقاذف المسؤولية. الوقت يمر، والحل واضح. نحن بحاجة للتخلص من جزء من حمولة السفينة، أنا طبيب ولست من أرباب التجارة، ومثل بعض الركاب لا أحمل إلا أمتعتي الشخصية، وإذا اقتضى الأمر التخلص من متاعي لإنقاذ السفينة فلن أتردد أو أجادل بأنه خفيف لا يقدم أو يؤخر في خضم هذه العاصفة الهوجاء"

قال سعدون مخاطباً الطبيب: - "لو كان جميع ما تملك من رأسمال التجارة في بطن هذه السفينة لما هان عليك أن تلقي به لأسماك البحر"

والثفت سعدون إلى الركاب المحتشدين لدى القبطان وقال: "لقد كلفني التجار بأن أتفق مع القبطان على الإجراء الواجب القيام به لإنقاذ السفينة، وما لم يقله القبطان المحترم لكم هو أن سرحان القابع في حجرته له وحده حمولة زائدة تعادل الحمولة الزائدة لدى صغار التجار الآخرين الذين أتحدث باسمهم، فمن السبب في الخطر الذي يتهددنا الآن؟ ولماذا لا نرى التاجر الكبير سرحان في هذا الاجتماع؟ لن يسمح أي تاجر من الركاب بالتخلص من جزء من بضاعته إذا لم يضح سرحان أولاً بحمولته الزائدة"

- "أتعجب لهذا النزاع بين صغار التجار وسرحان، وكيف يوضع رأس مال التجارة في كفة وأرواح الركاب في كفة أخرى" قال الطيب وتابع موضحاً "إن كنت تتحدث باسم صغار التجار، فاسمحوا لي أن أتحدث باسم غير التجار، وهم ثمانية عشر ركباً كما فهمت من القبطان، نحن لا نتحدث عن إنقاذ السفينة بالمعنى التجاري، بل همنا إنقاذ أرواحنا وأرواحكم قبل كل شيء"

عقد سعدون حاجبيه وقال: - "ليس على حسابنا طالما يمكن إنقاذ أرواحنا وتجارنا بالتخلص من بضاعة سرحان، خسارة تاجر واحد لجزء يسير من ثروته الكبيرة أفضل من أن يخسر كل تاجر من صغار التجار العشرين أكثر من نصف ثروته أو رأسماله"

وتابع بلهجة المتوعد " قرارنا هو التخلص من بضاعة تاجرين: سرحان الذي لم يقبل حتى حضور هذا الاجتماع، والقبطان الذي سمح بالحمولات الزائدة ابتداءً، ولتعلم أيها الطيب أن من الركاب الثمانية عشر الذين تتحدث باسمهم نفر هم حرس سرحان السبعة الذين يحمونه بسيوفهم وآخرون هم ملاحو القبطان الأربعة، فكم يبقى من الركاب غير ذوي المصلحة بالتجارة؟ سبعة رجال فقط، وإنهم يجب أن يقفوا مع العدل، والعدل هو ما قررناه"

قاطع القبطان سعدون بلهجة تدل أن صبره نفذ: - "لقد سمحتُ لسرحان بالحمولة الزائدة كما سمحت لك وللتجار الآخرين، بخبرتي أعرف أن هذا الوقت من السنة لا يعرف

العواصف في خط سير رحلتنا، وإلا لما خاطرت بالحمولة الزائدة، ألت على السفينة نفسها معكم أم تراني أحلق بجناحي نسر بعيداً عن أمواج البحر التي ترتفع حولنا كأنياب وحوش ضارية؟! "

تدخل الطبيب لفض التلاسن بين القبطان وسعدون، فقال: - "لعل سرحان سيتعاون إذا علم باتفاق الجميع على أن يتخلص كل واحد من حمولته الزائدة"

فكر سعدون بأن الأفضل أن يحاول استمالة الركاب وإقناعهم بموقفه ورفاقه فقال بهدوء متكلف: - "لا أيها الطبيب النبيل، نحن نعرف سرحان وجشعه، وما أعلنه القبطان من أن الملاحين سيلقون ما يمكنهم إلقاءه من البضاعة يعني أنهم سيتسلطون على بضاعة صغار التجار، يعاوتهم في ذلك حرس سرحان، أجل! لم يحضر سرحان اجتماعنا لأن خطة إنقاذ السفينة بالنسبة له واضحة؛ على حسابنا نحن فقط"

عدّل فضيل قبعته التي تبدو كأنها تميل كلما مالَت السفينة، وقال: - "حسناً، لا بد في كل حال أن نحتكم للمنطق، إن أحداً منكم لم ينكر أن له حمولة زائدة، إذاً كلكم يتحمل جزءاً من مسؤولية الخطر الذي نواجهه، لا أقول خطر خسارة التجارة، بل خطر الموت الذي يفرغ فاه نحونا مع كل موجة عاتية تضربنا، وهذه المسؤولية تملي على كل تاجر أن يتخلص من حمولته الزائدة، فإذا أحجم أحد عن إخلاء مسؤوليته فإن هذا لا يخول الآخرين عذراً منطقياً ولا يعطيهم مبرراً أخلاقياً ليمتنعوا بدورهم عن القيام بما ينبغي عليهم"

عند ذلك أعلن القبطان: - "أوافقك أيها الطبيب فضيل، وسأكون أول من يتخلص من حمولته الزائدة، بل سأمر الملاحين بالتخلص منها حالاً" واتجه إلى أحد الملاحين ليعطيه تعليمات.

* * *

سأل الطبيب سعدون بأسلوب رفيق لين: - "ما رأيك يا سيد سعدون؟ أنقذوا أنفسكم وأنقذوا الأبرياء على متن هذه السفينة، كونوا عوناً لنا على هذه العاصفة التي تضرب السفينة من خارجها، ولا تجعلوا من أنفسكم زوبعة توهن السفينة وتزعزعها من الداخل قبل أن تفتك بها الأمواج المتلاطمة من حولها ولكم بعد أن تفلتوا من براثن الموت أن تطلبوا ما تشاؤون من تعويض من القبطان أو سرحان من خلال القاضي إن كان لكم حق في التعويض"

- "يا سيدي، أنت تسيء فهم موقفنا وأخواني التجار، في الواقع إن المسألة ليست الحرص على الحمولة الزائدة، إنها تراكم لمعاناتنا مع سرحان، لطالما ألحق بنا الحيف بمنافسته غير الشريفة لنا على اليابسة ثم نراه يجر علينا الوبال في البحر، لئن كان يححف بحقنا وهو آمن في سوقه، ألا يرف له جفن وهو يواجه معنا خطر الموت؟ أيرى نفسه أكبر من الموت! أنت لا تعرفه يا سيدي، والقبطان في قبضته؛ ذلك أن سفينته لا تدر عليه دخلاً جيداً إذا لم يتعامل سرحان معه، القبطان عملياً أجير عنده ولا يمثل الحياد والنزاهة".

- "أفهم ما تقول، وأفترض صحته بسبب تجاهل سرحان لهذا الاجتماع، لكن لا محيص من أن نفكر في السلامة الآن، إن سلوك سرحان معكم لا يبرر المخاطرة بالسفينة والمسافرين، ينبغي أن يكون شغلنا الشاغل الآن هو الوصول إلى بر الأمان، ثم تلتفتون لتسوية خلافاتكم مع سرحان، المحاكم هناك على اليابسة وليست في قاع البحر! ولا تنس أن نظرة الركاب لكم لا تختلف عن نظرتهم إلى سرحان فكلكم مخالف بالتسبب بالحمولة الزائدة بغض النظر عن نصيب كل منكم".

لم يلبث القبطان أن عاد بالتجهم الذي ذهب به، وأجال بصره في الحاضرين قائلاً:

- "العاصفة لا تزال في بداياتها، ولكن ميلان السفينة من ناحية المقدمة يزداد شيئاً فشيئاً، وذلك بسبب الحمولة الزائدة التي أضعفت توازن السفينة، لا جدوى من استمرار الجدل بيننا، لقد ألقى الملاحون حمولتي الزائدة في البحر، ينبغي أن يراجع كل واحد نفسه،

وسأذهب لأطلع سرحان على ما دار في هذا الاجتماع، لكن لا بد من اتخاذ إجراء خلال الساعات القليلة القادمة قبل أن نفقد جميعاً القدرة على الاتزان فوق هذه السفينة".

قال سعدون واثقاً: - "لسنا بحاجة للتشاور مع سرحان، لقد أجمعنا أمرنا، واتخذنا قرارنا".

ووسط همهمات الحاضرين، حاول فضيل تجاهل رفض سعدون قائلاً:

- "لعلك تأتي بسرحان، أيها القبطان، لنحسم الخلاف بسرعة "

شد القبطان شفتيه تعبيراً عن عدم ثقته بقدرته على التأثير على سرحان، وأشار بيمينه مسلماً، التف التجار حول سعدون واختلطت ألسنتهم بالتأييد له وتأكيد عزمهم على إنقاذ السفينة بالتخلص من حمولة سرحان الزائدة.

على نجوة من حشد التجار الحائقين أحاط بعض الركاب بالطبيب فضيل والقلق باد على وجوههم الشاحبة خوفاً من مصيرهم الغامض.

قال صابر مخاطباً فضيلاً: - "يا سيدي، لقد أصبت الحكمة في كلامك مع القبطان والتجار، ونرجو أن يرجعوا للحق الذي أوضحتته كالشمس في رابعة النهار، فأنا وأخي جميل لا ناقة لنا ولا جمل في هذه البضائع كلها، ولا ندري ماذا نفعل لإنقاذ السفينة وأهلها".

أردف جميل معزراً كلام أخيه: - "أجل أيها الطبيب الحكيم، ما قاله أخي صابر صحيح، وإننا نسأل الله أن يمن علينا بالسلامة لنعود لأمننا العجوز، لكن إذا اقتضى الأمر، ألا ينبغي أن نواجه نحن سرحان وهؤلاء التجار فنتخلص من بضاعتهم ونضعهم أمام الأمر الواقع؟".

رد فضيل والحسرة تبدو في نظراته: - "أيها الأخوة، إننا لا نضمن النجاة إذا واجهنا التجار وسرحان بالقوة، سرحان وحرسه مسلحون بالسيوف التي غرقتهم وجعلتهم واثقين بقدرتهم

على إنفاذ رأيهم، والتجار الآخرون مندفعون بغضبهم وحقدهم، يجب ألا ندع هؤلاء وهؤلاء يفرضون علينا الاختيار بين الموت غرقاً أو قتلاً على أيديهم، إذا فرض عليكم الخيار بين الموت غرقاً أو قتلاً فافرضوا خياركم أن تموتوا أبرياء ولا تتسببوا بالغرق ولا بالقتل، ليس أمامنا سوى محاولة إقناعهم، فإن متنا على أية حال متنا أبرياء سليمي الصدر، أظن أن عليّ أن ألحق بالقبطان لعلّي أساعده في إقناع سرحان بالتخفيف من تعنته، وأسأل الله السلامة للجميع".

انصرف فضيل وظل صابر وأخوه وأربعة ركاب كأن على رؤوسهم الطير، كيف يستسلمون لهذا الصراع الدائر بين التجار وكأن الأمر لا يعينهم؟ إذا كانوا مهددين بالموت على أية حال، لم لا يحاولون النجاة؟ يدير أحدهم كلام فضيل في رأسه فيشعر كأنه ابتلع سكيناً كلما حاول إخراجها قطعت جزءاً من أحشائه، لو كان ثمة أطواق نجاة لقفزوا بها من السفينة وتركوا التجار فيها يختصمون، تمنى صابر لو كان ثرياً لا يشتري حمولة السفينة وألقاها في البحر. يا لها من معادلة عجيبة تجمع على صعيد واحد من عنده استعداد للتضحية بنفسه في سبيل الآخرين مع من لا يرتدع عن التضحية بكل شيء من أجل مصلحته.

قطع جميل صمت الحاضرين قائلاً: - "لا أصدق أن هذه العاصفة العمياء تدهمنا مع هؤلاء على حد سواء، ماذا جنينا؟".

قال صابر: - "لسنا سواء، المواقف تميز العقلاء وذوي الحكمة وتظهر الصابرين، قد نشترك معهم في المعاناة ولربما نتساوى في عين العاصفة ونصير سويةً في جوف البحر؛ لكننا لسنا سواء في ميزان القيم، يتساوى الجميع في الموت، لكنهم لا يتساوون في كيف يموتون وعلى أي موقف يفارقون الحياة".

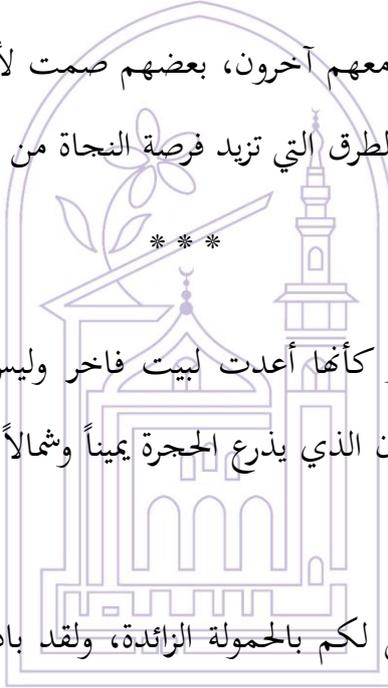
- "هل تحمينا القيم، هكذا دون أن نبادر بعمل؟ لا بد أن يعرف هؤلاء التجار أنهم ليسوا وحدهم هنا، هم فريق، سرحان وحرسه فريق، حتى القبطان وملاحوه فريق لا ندري أين يتجهون".

- "نحن لسنا مكتوفي الأيدي، هذا فضيل ينطق بلساننا ويسعى، ونحن معه".

- "نحن سبعة فقط على أية حال!".

- "لكن ثامننا سلاح القيم".

عاد صابر وجميل للصمت ومعهم آخرون، بعضهم صمت لأنه لا حيلة له، وآخرون لأنهم مقتنعون بأنهم يسلكون أسلم الطرق التي تزيد فرصة النجاة من الغرق.



في حجرة واسعة أاثاتها وثير كأنها أعدت لبيت فاخر وليس لإيواء مسافر كان سرحان يجلس على أريكة يحاور القبطان الذي يذرع الحجره يميناً وشمالاً وقد حدثه عما دار بينه وبين التجار وفضيل.

- "كم أنا نادم على سماحي لكم بالحمولة الزائدة، ولقد بادرت إلى التخلص من حمولتي الشخصية".

- "لم تكن مضطراً لذلك، أوافقك على وجوب التخلص من بضاعة، لكن ليس بضاعة الطرف الأقوى".

- "يا سرحان، الأمر أخطر من تركه لرهانات القوة، إنها مسألة حياة أو موت".

- "إنها مسألة شكل الحياة بعد النجاة، هل تريد أن يقال إن سعدون أصبح صاحب قرار مثلي وأن له كلمة تعلق في حضرتي؟ لا فرق بين الموت في قعر هذا البحر وضياح هيبتي فوق الأرض".

سكت القبطان وذهنه يسترجع تاريخ علاقته بسرحان، لم تكن هذه العلاقة صداقة وأخوة بقدر ما كانت مصالح تجارية مشتركة، ازدهار تجارة سرحان كان محركاً لسفينة القبطان الذي فضله على منافسيه في نقل البضاعة، لم يكن يتخيل القبطان أن علاقته بسرحان ستقلب وبالأعلى عليه، فهذا هو مهدد بالغرق مع سفينته التي اكتشف أنه يقف وراء دفتها مكتوف اليدين: لا يملك عليها قراراً ولم يعد يراها إلا قفراً، ثم هو لا يستطيع منها فراراً.

لم يقطع أفكار القبطان وخوابره إلا فضيل عندما استأذن في الدخول. قال القبطان مقدماً الطبيب إلى سرحان: - "هذا الطبيب فضيل، ولقد حاول إقناع التجار بالتضحية بممولاتهم الزائدة، يا سيدي".

- "لقد حاولت إقناع التجار بالقيام بما تمليه عليه مسؤولياتهم، لكنهم يرون السيد سرحان شريكاً لهم في الغرم الذي يترتب على هذه العاصفة التي تنذر بهلاك السفينة ومن عليها وضياح ما فيها، وإني على يقين أنك يا سيد سرحان لن تتوانى في المساهمة في إنقاذ السفينة"

قطب سرحان حاجبيه، وقال: - "لعلهم تكلموا بلسان الحسد، فاغتموا هذه الظروف ليوغروا صدور الركاب عليّ".

فضيل: - "لا يفهم الركاب حقاً لماذا يتم الزج بهم في خلافات بين التجار وبينك، وليس مكان حلها السفينة، لاسيما في هذه الظروف، الركاب يتطلعون للإجراء الذي يقوم به ركاب أية سفينة في مثل هذه الجائحة".

- "أيها الطبيب، أراك من ذوي الحكمة والبصيرة، وقد أعلمني القبطان بحجج التجار وموازنتهم بين خسائرهم الفادحة وخسارتي اليسيرة في ظنهم، زعموا! أيها الطبيب إن خسائرهم صغيرةً كانت أم كبيرة لا تعدو كونها خسارة لمصالح شخصية، صحيح أن حجم بضاعتي أضعاف بضائعهم، لكن بضاعتي هي قوت أهل البلد، لا شك أن هلاك بضاعتي والانتظار حتى يأتي ما يعوض البلاد عنها سيقود الناس إلى ضائقة من نقص الإمدادات الغذائية وما يترتب على ذلك من ارتفاع أسعار قوتهم".

- "مهما يكن نوع البضاعة، إنها حمولة زائدة تهدد السفينة".

- "ما أردت قوله أيها الطبيب هو أنني أمثل المصلحة العامة، أما التجار الآخرون فلا يمثلون إلا مصالحهم الشخصية، إن أية موازنة بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة لا شك ستنتهي لترجيح المصلحة العامة".

- "أقدر حرصك على قوت أهل البلد، لكن ماذا عن أرواح ركاب هذه السفينة؟ إن استهتارك بأرواحنا التي يحدق بها خطر محقق وتذرعك بالخوف على قوت أهل البلد من ضيق تتكهنه يكشف أنك مثل التجار الآخرين تموه مصلحتك الشخصية باعتبارات أخرى ظاهرها الإنصاف وجوهرها الأثرة والحرص".

- "إنهم جزء من الخطر الذي يهدد السفينة بسبب رعوناتهم، مساواتي بهم تعقد المشكلة ولا تحلها".

رد فضيل بنبرة استنكار: - "لن نتمكن من مواجهة الإعصار الذي يدهشنا من الجهات الستة إذا لم تسكتوا هذه العاصفة التي أنتم أمواجها تحرككم رياح مصالحكم، وما أرى إلا أن السفينة وأهلها سيهلكون قبل أن يقنعك التجار برأيهم أو تحملهم على مقتضى رغبتك، المقام لا يتسع للجدل والمحاججة؛ لسنا في مناظرة بل نحن في عين عاصفة ثائرة لا ندرى متى تفتك بالسفينة وحمولتها وبنا وإياكم معها".

- "لست مضطراً لإقناع التجار بوجهة نظري ولا بإثبات صدق حرصي على المصلحة العامة لك، إن رجالي جاهزون لحماية بضاعتي وإلقاء بضاعة التجار الحاسدين في البحر، الأمر مقضي بالنسبة لي". وبدا أن سرحان ضاق ذرعاً بهذا الحوار، واتجه إلى القبطان قائلاً "عليك أن تبلغ التجار بضرورة ألا يقاوموا رجالي، لن أسمح بالمساس ببضاعتي".

أدرك الطبيب فضيل أن الأجدى إنهاء الحوار مع سرحان عند هذه النقطة لئلا يصل لقطيعة معه، لعله يتمكن من التحدث معه لاحقاً.

* * *

في قاعة الطعام كان التجار مجتمعين لتوزيع الأدوار بينهم لتنفيذ خططهم لإنقاذ السفينة - ليس على حسابهم بالطبع.

قال سعدون وهو يمشي بين أصحابه كقائد عسكري بين جنوده: - "على كل واحد أن يمسك عصاً أو قضيباً حديدياً يواجه به سيوف حرس سرحان، سليم وجابر وحمدان ومن معهم سيتولون حراسة عنابر بضاعتنا، أما أنت يا رافع ومن معك فعليكم منع سرحان وحرصه من الخروج من الطابق السفلي وإبقاؤهم في حجراتهم، وعلى ماجد ورفاقه التعامل مع القبطان والملاحين، بينما أقوم أنا ومن معي بالتخلص من بضاعة سرحان".

دخل الطبيب فضيل إلى قاعة الطعام، فهرع إليه صابر قائلاً: - "يا سيدي إنهم على وشك تنفيذ خططهم ولو بالقوة".

قال فضيل قلقاً: - "يا سعدون، أيها التجار، تريثوا لعلنا نحل الأمر بالاتفاق، الأمر لا يحتمل المشاجرات على متن السفينة المتهاككة".

أجاب سعدون: - "أيها الطبيب، لقد نقل القبطان إلينا تهديد سرحان، لن نتنظر حتى يمسك هو بزمام الأمور، لا بد أن نداهم أولاً، ألم تدرك صدق قولنا عنه، إنه صلف متعنت"

- "أيها الأخوة لا بد من قرار عاقل حكيم، تتنافسون مع سرحان في التجارة وتبارونه في الحرص على البضائع، لماذا لا تتفوقون عليه بإنسانيتكم، في الإيثار، في الحرص على أرواح الأبرياء".

- " قل هذا الكلام لسرحان إذا رأيته يقاومنا".

- "أقوله لسرحان ولكم، لأنكم تشتركون في الأثرة والأنانية والحرص على مصالحكم الشخصية، تشاطرونه المسؤولية عما نحن فيه بسبب حملاتكم الزائدة، لقد عصفت بنا عيوبكم قبل أن تعصف بنا أمواج البحر ورياحه، لا بد أن يستجيب الجميع لداعي العقل وواجب الإنسانية".

جاء القبطان مسرعاً وهو ينادي: - "أيها الطبيب، أيها الطبيب، سقط سرحان ويبدو أنه أغمي عليه، ولا ندري ما نضنع له".
- " أنا قادم فوراً".

وجد الطبيب أن سرحان سقط بفعل حركة مفاجئة للسفينة، وعالجه بأعشاب استخراجها من أمتعه فأفاق، بقي الطبيب بجانب سرحان الذي أخذت حالته تستقر خلال دقائق، وبدا للطبيب أن يحدث سرحان بشأن بضاعته لعل العارض الصحي الذي ألم به الآن من حدة طبعه، أو عسى يد العون التي مدها إليه تجعل كلامه أقرب إلى قلبه وأندى على سمعه.

- "لا تحدثني بشأن البضاعة".

- "يا سرحان، إن بضاعتك كلها لا تساوي سلامتك التي من الله بها عليك".

- "لقد أنجاني الله لأوصل قوت أهل البلد إليهم".

- "عذراً، إنك تستهزئ بنا وتستخف بعقولنا، لا تموه مصلحتك الشخصية بالمصلحة العامة، لكنك تستطيع أن تكسب ود أهل البلد إن أنت ضحيت من أجل المحافظة على أرواح أبنائهم الذين على ظهر هذه السفينة، ستسمو مكانتك المعنوية بين الناس ويعلو مركزك الاجتماعي عندهم، ما ضرك لو نجح التجار الآخرون ببضاعتهم وفزت أنت بالسمعة الطيبة، وحمد الناس صنيعك وصرت مضرب المثل في المروءة؟ هل يستطيع أحد من التجار بعد ذلك أن يوجه إليك سهام النقد أو يبلغ شأوك؟".

- "بل إن التجار سيذيعون بين الناس أنهم أرغموني على إلقاء بضاعتي في البحر لتضيع هييتي في السوق وتسقط كلمتي بين الناس، وأنا أعرف سعدون، إنه يترصب بي لتحالفه مع منافسي الكبير في بلدنا، وإنه يتذرع بالعاصفة الليل مني، ما يجري على السفينة متصل بمنافستنا التجارية هناك".

- "وماذا لو أصر التجار على إلقاء بضاعتك ولو بالقوة؟ يا سيدي أنا لم أنقل لهم ما دار بيني وبينك أول الأمر لئلا ينقطع الأمل في اتفاقكم".

جاء أحد حرس سرحان مسرعاً يقول وهو يلهث: - "يا سيدي سرحان، لقد حاول بعض التجار الوصول إلى عنابر بضاعتك ومنعهم الحرس، ولقد حاولوا محاصرتنا في مقصورتنا فأبعدناهم".

- "أرأيت أيها الطبيب، إن تنازلي الآن سيفسر أنه استسلام وضعف، وانظر إلى غدرهم إذ حاولوا استغلال الإصابة التي ألمت بي للانقضاض عليّ، قل لهم إن موتي أهون علي من ترميغ هييتي بالتراب، قبل أن يلقوا بضاعتي في البحر سأحرق السفينة من حجرتي هذه، قل لهم ليكفوا ويلقوا بضاعتهم في البحر".

- "يا سرحان لا تنس أن في الركاب أبرياء لا تجارة لهم، ولا بد أن يكون لهم كلمة، إذا غابت التضحية والإنسانية عنكم، فإن العدل والمنطق يقضيان بأن يتحمل كل تاجر نصيباً

من الخسارة، وليكن ذلك بنسبة حمولته الزائدة إلى مجموع الحمولة الزائدة، لعل ذلك يكفي لإنقاذ السفينة فلا يخسر التجار جميع حمولاتهم الزائدة، فإذا لم يكن ذلك كافياً، نضطر عندها فقط للتخلص من باقي الحمولة الزائدة، نحن لا نستهن بمصالحكم التجارية، فلا تغامروا بأرواحنا، أرجوكم".

- "هذا لا يكون، لن يتأتى اجتماع التجار على هذا الرأي لأن خسارتهم كبيرة على أي حال".

- "بل لا شك أن الركاب والقبطان والملاحين سيوافقون على تطبيق هذا الحل، فهو معهود في البحار معروف للتجار، لئن كنت تستطيع أن تماري سعدون، فماذا عسك تقول للمسافرين الأبرياء وقد أخذوا موقفاً واحداً مع التجار والقبطان! شيء أخير أقوله لك؛ إن أحداً لا يعرف بحواري هذا معك، والفرصة أمامك أن تبادر لهذا الحل إن شئت دون شائبة تأثير أحد عليك، فتحظى بنيل الموقف والسمعة الطيبة قبل أن يفرض الحل عليك بإجماع الركاب".

خرج الطبيب وسرحان يشيعه بنظرات حنق، وهو يتساءل في نفسه متوجساً "ماذا لو نجح فضيل فعلاً في جمع كلمة الركاب وإحراجي".

* * *

اتجه الطبيب إلى قاعة الطعام وكان صوت القبطان عالياً وهو يعلن للركاب المجتمعين أن العاصفة عاودت الاشتداد وأن ساعة اتخاذ إجراء حازم قد أزفت، التفت سعدون إلى الطبيب حال دخوله إلى القاعة وبادره بالقول مستنكراً: - "نُطِبَّ سرحان؟! أبعد ما أبداه من استهتار بجميع الركاب؟".

- "لقد قمْتُ بواجبي الطبيّ الإنساني، واجبي نحوهُ لا يقل عن واجبي نحو أي إنسان منكم أو من غيركم، أم تريدني أن أتعلم منه ومنك الاستهتار بأرواح الناس؟!".

تدخل جابر قائلاً: - "أيها الطبيب أنت تتحامل علينا، ولا إخالك قلت لسرحان بعض ما تكيله لنا".

- "لا شأن لك الآن بما أقوله لسرحان وقد وصلنا لمرحلة خطيرة، أنتم لا تختلفون عن سرحان في دناءة النفس، وإن تفاوتتم معه في القدرة على إشباع رغبات النفس الدنيئة، أستم شركاء في جرم تحميل السفينة ما يزيد عن طاقتها؟ ثم أنتم تغامرون بسلامة إخوتكم الركاب في سبيل بضاعتكم رغم أنها وهي في مهب الريح لا تختلف عن شراء السمك في البحر. أتعجب أين عقولكم! أنا الآن أعلن للركاب أنه لا مفر من اتباع المنطق الذي يقضي بأن يتحمل كل تاجر نسبة من البضاعة التي يجب إلقاؤها في البحر. وسنعمل على البحث في طريقة لتعويضهم جميعاً بعد وصولنا لبر الأمان".

اهتزت السفينة فجأة ومارت موراً ذات اليمين والشمال، ومال معها الركاب متدافعين، وما لبث أن خف اهتزاز السفينة ولكنه لم ينته، قال القبطان: - "ها هي ذي العاصفة تزجر وكأنها ترسل إنذارها الأخير، فسارعوا في التعاون".

قال رافع كمن سئم الأمر ويريد الخلاص بأي ثمن: - "دعونا نفكر في هذا الأمر، إنه حل عادل ولا بد من مخرج في النهاية وفي أسرع ما يمكن".

شعر سعدون بأن بعض أعضاء فريقه بدأوا يلقون أذن القبول لما يقوله الطبيب فضيل، وخشي أن يتصدع اتحاد أنصاره تحت تأثير فضيل، لاسيما إذا تنازل رافع، فقال سعدون:

- "دعوني أتشاور مع التجار في حجرتي".

دعا فضيل الجميع للانضمام إليه بعد قليل للتوجه معاً إلى حجرة سرحان لإقناعه بالحل المقترح باعتباره موقفاً جماعياً، انفض الاجتماع حيث انصرف القبطان والطبيب للتحدث مع الملاحين، وذهب سعدون إلى حجرته مصطحباً رافع وجابر وحمدان، في حين بقي بعض الركاب في قاعة الطعام وعاد آخرون إلى حجراتهم.

قال القبطان للطبيب فضيل: - "ماذا لو أصر سرحان على موقفه؟".

- "للتفائل، لعله سيشرح بالخرج من رفض موقف جماعي يطلب منه التعاون ودياً، دعني أسبقكم إليه لأمهّد للقاء، وأرجو أن تلحقني بسرعة مع الركاب الآخرين، وسأمر بحجرة سعدون أولاً لعله يذهب معي وصحبه أيضاً".

نزل فضيل السلم المفضي إلى الممر الذي يوصل عن اليسار إلى حجرة سعدون وعن اليمين إلى حجرة سرحان، كانت خطواته على السلم هادئة لم تهزه الأمواج المتلاطمة، شيء واحد كان يهيمن على تفكيره: كيف يقرب بين وجهات نظر سرحان وسعدون، كان موقنا أن كل واحد منهما يعلم في قريرة نفسه أنه غير منحاز لهذا الفريق أو ذاك وأن همه إنقاذ أرواح المسافرين جميعاً، ولكن إذا كان حرص كل من سرحان وسعدون على مصلحته جعله يستخف بأرواح الركاب فلا عجب أن يدفع هذا الحرص كلاً منهما لاثام فضيل بالانحياز لخصمه ليبررا لأنصارهما رفضهما اقتراحه ونصائحه، مضى فضيل في سيره وهو يقول لنفسه "ليسلم الجميع ثم ليظن بي هذا وذاك ما شاؤوا أن يظنوا". وقف في الممر ونظر يمنة ويسرة وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يمضي لما نوى عليه.

في هذه الأثناء كان القبطان وصل إلى قاعة الطعام ليصطحب من فيها، وجد القبطان الركاب في قاعة الطعام باستثناء فضيل بالطبع وسعدون ورفاقه الذين اصطحبهم إلى حجرته، أخبرهم القبطان بأنهم ينبغي أن يلحقوا بفضيل، واستدرك قائلاً: - "لننتظر قليلاً لعل سعدون والثلاثة الذين معه يعودون إلى قاعة الطعام".

ثم قرر القبطان والركاب التوجه لحجرة سرحان التي تقع أسفل قاعة الطعام من الجهة اليمنى ويوصل الممر المؤدي إليها إلى سطح السفينة من جهة مؤخرتها، وفي طريقهم عرجوا إلى حجرة سعدون التي تقع أسفل غرفة الطعام من الجهة اليسرى ويوصل الممر المؤدي إليها صعوداً إلى باب جانبي لقاعة الطعام ويستمر صعوداً إلى سطح السفينة من ناحية مقدمتها، لم يجدوا أحداً في حجرة سعدون واستبشر الجميع خيراً بأن يكون التجار وافقوا على الذهاب مع الطبيب فضيل إلى سرحان. وصل القبطان ومن معه إلى حجرة سرحان، فدخل القبطان أولاً ووجد سرحان وحده واقفاً يحدق في لوحة على الجدار، سأله القبطان: - "كنت أظن أن فضيلاً سبقني إليك، ألم يحضر بعد؟".

أجاب سرحان دون أن يلتفت: - "لا".

- "على أية حال لقد جاء الركاب معي ليتباحثوا معك، فأرجو أن ننتظر حتى يصل فضيل، ولعل سعدون يأتي أيضاً".

مرت دقائق عصيبة على القبطان وصابروا والركاب المنتظرين، لكنهم خالجهم أمل بقرب التوصل إلى اتفاق، فلا شك أنه من الصعوبة بمكان رفض اقتراح فضيل، كأنه الهزيع الأخير من ليلة ظلماء يعرفون أن الصبح سنبيلج بعده.

لم يحضر فضيل، وخيم الصمت في جو من الرهبة التي يبعثها صفير الريح وصوت الموج الذي يضرب السفينة كسياط مؤلمة، استأذن القبطان ليستطلع الخبر، هل احتدم الجدل بين فضيل وسعدون فأخره إلى هذا الحد؟ عاد القبطان ومن معه من الركاب إلى قاعة الطعام فوجدوا سعدون ورفاقه الثلاثة فيها، فسألهم القبطان: - "ظننا أن الطبيب فضيلاً اصطحبكم إلى سرحان".

قال سعدون وقسمات وجهه جامدة: - "لم نره منذ غادرنا القاعة، لعله نزل من قاعة الطعام ونحن صاعدون من السلم الجانبي المؤدي للسطح، عدنا إلى هنا لنخبره قرارنا، إننا نقبل أن يشتري سرحان بضاعتنا ويلقيها في البحر، أي أن يلتزم بتعويضنا".

- "م يتغير موقفكم إذن، تريدون تحميل سرحان الخسارة الكاملة".

صاح صابر كأنه لم يسمع ما قاله سعدون: - "أين فضيل إذا لم يكن مر بكم ولم يصل إلى سرحان؟".

اضطرب القوم وثاروا كيف اختفى فضيل فجأة، وراحوا ينادون ويبحثون في جنبات السفينة وممراتها، لم يجدوا فضيلاً، لكن جميلاً عاد ممتع الوجه إلى قاعة الطعام يجرد قدميه جراً، التفت إليه الجميع بوجوم تدب فيه الرهبة وهم يرونه ترتعد قلائصه لا يدرون أمن البرد على سطح السفينة أم من هول ما يريد قوله، وقف جميل بينهم وهو يشد يديه على شيء، بسطه وإذا هي قبعة فضيل، قال بكلمات ترتجف: - "عثرت عليها على سطح السفينة وقد علقتها الريح بعمود أحد الأشرعة". ألقاها مشدوها والحاضرون يحدقون فيها كأنها شاهد صامت على مصير صاحبها.

تتلاطم الأفكار في رؤوس الحاضرين تلاطم الموج من حولهم، يتساءلون لماذا صعد فضيل إلى سطح السفينة بينما كان ينوي النزول لحجرة سعدون فيمضي معه إلى سرحان؟

قال القبطان: - "أخشى أن أقول إنه إذا لم يكن فضيلاً على متن السفينة، فإنه ..."

قال صابر بصوت متهدج تكاد تخنقه العبرات: - "أيعقل أن يكون بدا له فجأة أن يصعد إلى سطح السفينة فخطفته الريح أو تلقفه الموج.. لم لم يخبرنا إذاً وقد كان يعلم أننا في إثره ماضون؟".

صاح سعدون: - "بل قتله سرحان وألقاه في البحر، لا شك في ذلك لأن اقتراح فضيل يسبب له خسارة ولو جزئية".

- "بل تخلصتم أنتم من فضيل لأنه لم يوافق على خطتكم ضدي؟" هجم صوت سرحان مدوياً إذ فاجأ الجميع بوقوفه في مدخل قاعة الطعام وحوله الحرس شاهرين سيوفهم. ثم أردف قائلاً "حقاً، لقد حانت ساعة الحسم وإنقاذ السفينة".

هاج الجميع وماجوا بين الاتهام والوعيد. اختفاء فضيل بشكل مفاجئ أعطى كل فريق من التجار ذريعة جديدة للتشكيك بمنافسيهم واتهامهم، وتناسوا اقتراح فضيل، وحدهم صابر ورفاقه هرعوا إلى سطح السفينة ينادون ... يركضون جيئةً وذهاباً ... من مؤخرة السفينة إلى مقدمتها ومن ميسرتها إلى ميمنتها وهم يقاومون الريح ويجهدون في الثبات على سطح يبور تحت أقدامهم، لا يدرون أين فضيل من السفينة. وقفوا يمسكون بقضبان شفير السفينة عند مقدمتها، ومن بين شقوق قليلة في غيوم تتلبد في السماء بدا لهم الشفق يغوص في الماء عند الأفق مؤذناً بنزول ليل لا يعرفون ماذا يجيء في ثنايا عبايته السوداء.

نظر بعضهم إلى بعض حيارى مذهولين لغياب فضيل، وهم تتخبطهم الأفكار والهواجس؛ لماذا افترض كل فريق فوراً أن فضيلاً مات مقتولاً واتهم الآخر بقتله؟ لماذا يصر سعدون ورفاقه على تحميل سرحان كامل الخسارة إذا كانوا يعلمون مسبقاً أنه يرفض حتى الخسارة الجزئية التي اقترحها فضيل؟ ولماذا يتباكى سرحان على القوت الذي ينتظره أهل البلد بيد أنه يخاطر بشكل جنوني بأرواح رجال ينتظرهم ذوهم من أهل البلد؟

أية عماهة سقط هؤلاء التجار فيها، أم أية غشاوة ضربت على أبصارهم! لم يبق شيء معقول يستمسك به صابر ورفاقه في هذه المتاهة الضلّيلة ولا بصيص نور يستضيئون به في ديجور هذا الصراع البائس إلا كلمات فضيل التي ظلت ترن في آذانهم أنه "إذا فرض عليكم الخيار بين الموت غرقاً أو قتلاً فافرضوا خياركم أن تموتوا أبرياء ولا تتسببوا بالغرق ولا بالقتل".

وهكذا نأوا بأنفسهم وهم لا يجدون منجى لهم من عاصفة البحر وهيجان التجار إلا أن يرد
الله عقول هؤلاء التجار إليهم أو يقذف الحكمة في قلوبهم.

* * *

